الفصل الثامن

الغريزة والتعليم

ميز الله تعالى الإنسان بقوتين جليلتين :

١ – القدرة على اختبار الأمور بنفسه ، واستنباط الضوابط ذات الخير والشر منها.

٢ – القدرة على سَبر غَور الأعمال التى نسج على منوالها الخلطاء والمعاصرون والسالفون ، والسعى فى محاكاة ما عانوه لرقى الشؤون الاجتماعية .

فالقوة الأولى يشارك الحيوان الراقى الإنسان فيها من بعض الوجوه. وأما الثانية فهى حبس على الإنسان يستفيد بها مطالبه من طريق التكلم مع المجربين وقراءة سيرهم والاسترشاد بنصائح المؤدبين ، والتخلق بهديهم.

من أجل هذا اهتمت كل أمة بسن أنظمة تلائم عاداتها . ومنذ فطر الله الإنسان على الاجتماع لا تزال القراءة والكتابة والحساب أساسا للتعليم.

يبتدئ الطفل فيتعلم لغة أبوية والمجتمع الذى يحيط به ويستفيد من تجاربهم ، ويتحول إلى ميادين أوسع يتعلم فيها اللغات وشؤون الحياة، ليكون له بالعقول الراجحة صلة . فتتسع مداركه ، وتمتد آفاق نظراته وتغزر ينابيع معارفه وأفكاره.

وقد كلف المعلم تهذيب الطفل ، وألزم تغذيته بالعلوم والآداب ، وحُمل عبء التبعة كلها للوصول به إلى شاطئ السلامة كاملا. حتى لقد غلا « هربرت » فادّعى أن فى استطاعته وحده أن يصيّره نابغة أو عبقريا. فهذا ممكن إذا وجد لدى الطفل

استعدادا للفهم والحفظ . وماذا عسى أن يبلغه المعلم القدير إذا فقد الطفل هذه المواهب ؟. والنسيان وحده آفة عاتية تعارض قوانين التعليم وتفقده قيمته. ومن يشترط فى المعلم الجدارة ويلفت نظره عن الاستعداد الفطرى للطفل فقد شطّ عن الصواب ، وربما غلبه فى حكمه هذا نبوغه فى إبان طفولته، فيتخذ من نفسه مقياسا وينبرى للمناضلة به. ومن يجرد نفسه من ذخائر الحفظ والذكر ، ثم يأخذ مجلسه بين المتكلمين أو الكاتبين لا يجد شيئا يستمدّ منه فى الأمرين.

مثال لضعف الحفظ والذكر:

إليك الفراشة ، يؤثر ضوء المصباح فى بصرها فتتأثر أعصاب الحركة عندها وتسعى للاقتراب من الضوء. وما تلمس اللهب حتى تحس ألم الاحتراق فترتد عائدة ، ثم يؤثر الضوء ثانيا فى بصرها ، فتنسى ما اختبرته أولا وتندفع إلى اللهب وتحتك به ، فيزيدها ألما على ألم . كأن ما أصابها أولا على شدته قد ذهب أدراج الرياح. ولا تزال فى اندفاع ونكوص حتى تتقطع أوصالها ، ويأتيها الموت من كل مكان. وأخيرا تحترق وتموت.

هذا هو شأن غير الفقرى من الحيوان فإنه يولد وينمو ونصيبه من الغريزة ثابت فى الأمرين لا يقبل التعديل . وقد استثنوا من ذلك النمل والنحل والزنبار فإن التمرين يكسبها قوة كالحيوان الفقرى الذى حياته رهينة الكسب.

الشوق والتشويق:

الشوق حنين النفس إلى شيء تميل إليه ، فتنبسط له الأعصاب وتستقبل مقدارا وفيرا من الدم يجول فى أنحاء الجسم ، ويعوض ما تداثر من أنسجته ويطهره من فضلات الاحتراق. وإذا حيل بين النفس وما تشتهى انقبضت الأعصاب، وانحسر الدم فيلقى الجسم العذاب من أجل ذلك ، ويعيش عيشة سيئة.

وليس لدينا ضابط للمشوقات إذ لكل إنسان غرض يوافق مزاجه يكد لإدراكه ولا يطيق عنه صبرا ، فإن من يجيد الخط مثلا إذا تناول مكتوبا قصر النظر على

حروفه وتراكيبه وأشار إلى ما وافق القواعد الخطية وما خالفها ، بيد أن الأديب يوجه نظره إلى مادته وما زخر فيها من المعانى وما حوته من الترتيب والتنسيق ويمر بخطه الكريم دون أن يعيره التفاتا.

لو قدر المربى على تعرف مزاج الطفل من خلال حركاته لتسنى له أن يقطع لرقى التعليم شوطا واسعا ، ولا تخذله من ذرائع التشويق عدته ، ولأمكنه أن يضبط انتباه الطفل ويسير به إلى الغرض المنشود.

لا نقول بضرورة كون هذا الوازع المشوّق من الأمور المألوفة فحسب ، لأن الأمر المألوف ترخص العادة من قيمته. فتبتذله النفس ولا يعود له وقع فيها. ولا نقول بضرورة كونه من الأشياء الطريفة الغريبة فحسب ، لأن الأمر الغريب تنفر منه النفس خشية أن تترسم فيه ما يؤلمها.

وإذا اجتمع الطريف والمألوف معا ، وائتلفت عناصرهما ولدت منهما شرارة الشوق ، وبزغت منهما أشعة الجذل والسرور.

كم تتلهف نفس طالب العلم إلى إحراز مكافأة شوقا إليها فإذا انطلق فى ميدان العلم ولامست قضاياه نفسه ، صار له من الاستكثار منه شوق يغنيه عن تلك المكافأة ، وبذلك نرى هذا الشوق خرج من دائرة المحسنات إلى درجة المعانى ، وهى الدرجة التى تسمو بها النفس.

وكثيرا ما تلهو نفس الطفل بما يملك حواسه فينصرف عن الانتباه إلى ما نريد ، وما هى إلا همة المعلم يستعين بها على إثارة الشوق فيه ، فيتحول الطفل بسهولة عن ميوله ويخضع لإرادة المعلم. فإذا رافقه المعلم إلى الصحراء مثلا وأراه مظاهر الطبيعة وآثارها البديعة من الجبال والهضاب ، وكيف يتراكم السحاب وأراه الشمس لابسة حلة الجمال فى شروقها وغروبها ، وفك وثاقه فسمح له بالجولان أينما شاء ، فإن ذلك يحرك فيه الشوق لا محالة فيزيد الأمور تأملا ويملأ عينيه من محاسنها يصغى إلى أسمائها وما يصوغه المعلم من الأحاديث لها ، ليسلى نفسه إذا

عاد بذكرها ويحدث إخوانه مفتخرا بها. وهذا هو معنى قول بستالوتزى :« كتاب الطبيعة يجب أن يقرأ قبل كل كتاب ».

ولقد يملك الشوق زمام الأديب فيدفعه إلى قرض الشعر أو قول النثر ، والمطالع يرى بروق الشوق تتلألأ من ثنايا منطقه العذب.

ولقد تفهم فواعل الشوق فى الحيوان ، إذا صوبت نظرك إلى الحصان مثلا وقد ساقه سائسه إلى موارد الماء ، فإنه ينقاد إليه رغما منه ، ولكنه لا يشرب إلا إذا اشتاق الماء ، أو أثار التصفير فيه هذا الشوق.

والشجرة تخرج أزهارها ذات الألوان الجميلة الجذابة تفتن بها الحشرات فتجيء إليها وتهبط عليها ، حاملة فى فمها وبين أرجلها مادة النبات فتتولد منه الثمرة.

الحاجة إلى شحذ الغريزة:

لو فحصت عن القوة التى تضبط حركات الحيوان لعلمت أنها الغرائز. فهو يسعى مسترشدا بنورها مقبلا على الخير مدبرا عن الشر

ولو بحثت عن القوة التى تملك زمام الطفل ، وتكفل الرجل فى الأوقات العصيبة التى يذهل فيها عقله ، ويحار لبه ، ما وجدت مصدرها غير الغرائز.

ولو نظرت إلى الإنسان العاقل والحوادث تصارعه ويصارعها ، لم تر له صديقا حميما يكف عنه المخاوف سوى الغرائز.

فللغرائز الحول والطول ، والحكم العدل.

بيد أن البيئة بما زخرت من ضروب الحيل ، والزخرف تستطيع أن تموه الباطل وتصبغه بصبغة الحق ، وتقف فى طريق الغرائز فتحول مجراها وتجعلها ذريعة الشر. فالسمكة تسعى فى البحر بدافع الغريزة لنيل غذائها فتلتقمه ، وقد يكون طعما فتقع به فى شرك الموت.

والإنسان يستند إلى بنى نوعه لأن الاجتماع فيه طبع فيجمعه سوء طالعه بقوم

قطع التنازع أواصر إخائهم فيلقى منهم ما يسوءه . والرجل يسقط من الترام فتتحرك رجلاه بحكم الغريزة دفاعا عن النفس فتمر العجلات بهما فتبترهما. والغريق يمد يديه أملا فى المعونة ، أو رجاء أن تتعلقا بشيء . فيكون صنعهما هذا سببا للغرق ، إذ لو ترك نفسه لطفا جزء منه فينجو .

قال ابن زيدون فى رسالته الجدية :« لا غرو قد يغِص الماء شاربه. ويقتل الدواء المستشفى به. ويؤتى الحذر من مأمنه وتكون منية المتمنى فى أمنيته . والحين قد يسبق جهد الحريص ».

إشراف العقل على الغرائز:

فالغريزة ترشد بالطبع إلى السلامة ، وتتغير صبغتها صلاحا وفسادا تبعا لطبيعة البيئة. ولذلك يجب إشراف العقل عليها ليمحص قضاياها ، ويتخذ منها مقدمات صادقة لأحكامه.

يتردد الإنسان بين طريقى الفضائل والرذائل كالتائه فى البيداء والسارى فى الظلماء ، وإذا اضطرب به بحر الحوادث مرت سفينته بشواطئ الشره والقناعة ، والجبن والشجاعة ، والحشمة والكبرياء والتواضع والرياء . فلا يدرى أيهما يختار، ولا على أيهما يعول ، وإذا قادته الغريزة إلى واحدة منها زحمته الأخرى حتى يؤيد العقل أمثلها وبذلك يظهر مقام الألمعى الذى يظن بك الظن كأنه قد رأى وقد سمع .

كان ابن طولون يأكل فى إحدى حدائقه. فرأى سائلا فى ثياب رثة ، فأرسل إليه بعض الغلمان برغيف ودجاجة، فرفض الغلام دون أن يتناول السائل منه شيئا. فأمر ابن طولون به فأحضر واتهمه بأنه جاسوس بعض الأعداء. فاعترف الرجل بذلك. فقال بعض جلسائه: إن صنيع الملك ضرب من السحر، فقال ابن طولون :

« إنما هو قياس صائب ، إنى رأيت سوء هيئة الرجل ، وإباءه عن طعام يتمنى

الشبعان أن يأكله. ثم رأيت ما له من الجراءة، ورباطة الجأش، فحكمت بما حكمت »

كيف تتخذ الغريزة أساسا للتعليم ؟:

علينا أن نثير بعض الغرائز فى الطفل، ثم نراقب أثرها ونعد له محوا وإثباتا على النمط الذى يلائم التعليم. فرضنا أننا عرضنا عليه لعبة جديدة، فإنك تراه يمد يديه لأخذها متلهفا وهذا طبع لا يتخلف فيه ما دام سليما من الأمراض. فرضنا أننا ضربناه على يديه وهو يمدها فإنه يردهما مكرها خوفا على نفسه من الأذى، ويتسلط عليه اليأس فيبكى ويصرخ، والبكاء فى اصطلاح الأطفال لغة يعبر بها عن الاستياء الذاتى يهيج به عواطف السامعين للأخذ بناصره.

هبنا ظهرنا أمامه حينئذ مشفقين، ورمقناه بأعيننا فرحين وخاطبناه بلين القول، وأخبرناه أن هذه اللعبة ملكنا، وأن فى إمكانه أن يتوسل إلينا ويستعطفنا بإعطائها إليه كرما وفضلا، فربما سكن روعه وهدأ جأشه ولبى هذا الطلب رغبة فى تملكها، ومتى سلمناها إليه نجده لا محالة يمسح عن عينيه دموع الحزن، ويستبدل بها دموع الدلال، ويبسم ثغره ويجرى ماء البشاشة فى وجهه، ويجول السرور فى صدره.

فهذه سلسلة حركات اطرادية متلازمة، يؤثر جمال الشيء فى بصره، فتتحرك يداه لملكه، وتنبعث نفسه لاغتصابه، ولا يستطيع كتمان ما يدور بخلده إذا حُرمه، فيبكى إشارة إلى حبوط مسعاه، وإذا خفف وطأة طلبه بحسن عبارته، واستعمل التلميح بدل التصريح لإظهار عواطفه، فإنه يظفر ببغيته المنشودة.

فإذا فهم الطفل هذه الحركات النفسية، ووعاها واستعمل ملكتى الحفظ والذكر خير استعمال بمعنى أنه عندما تنزل به الحوادث يتريث حتى يستذكر نتيجة تجاربه فيما له بها شبه، فإنه يصبح أحزم من أن يمد يده أخرى على وجه يكون عقباه الضرر.

وبعبارة أخرى يقف مترددا بين مطلبى الغريزة والعقل، رغبة فى أخذها ورهبة

من العقوبة ويرجح جانب العقل.

إليك هذا المثال : إن الشمعة المضيئة تنبه مركز الإحساس البصرى فى المخ فينتقل التأثير منه إلى مركز الحركة. ومنه إلى العضلات الموصولة به فتتحرك تنفيذا للعمل المطلوب ، فتمتد اليد إلى الشمعة لتلمسها. ثم إن الحركة التى تحدث ألم الاحتراق تنبه عن طريق آخر مركز الإحساس لأداء عمل يضاد الأول ، وهو كف اليد عن مركز التأثير ، فإذا عرض التأثير فى فرصة أخرى ، فإن مركز الإحساس الذى ضبط صورة الانفعال الأخير وما فيه من حرج ، ينقل الإحساس إلى المخ مباشرة بدلا من الاستعانة بمركز الحركة ، ثم يسرى حكم العقل فى لهب الشمعة إلى كل ما له شبه به ، فيدعو الحوادث ويذكر ما لابسها من الخطر قبل أن تمتد اليد للاختبار، ويصدر الحكم إما بعدم الاقتراب منه لأنه ذو خطر ، وإما بالفرار منه.

وقد ورد فى الأثر: « لا يلدغ المؤمن من جُحر مرتين » فالمؤمن الذى شأنه أن يكون عاقلا إذا نزلت به مصيبة بحث عن أسبابها ، وفسح لها فى ذهنه مكانا فإذا عاودته بنفسها أو بنظائرها ، أيقظ عقله للحكم السديد قياسا على ما جرّب ونبه الوازع لاجتنابها ، إلا إذا قضى عليه القضاء المبرم ، وأنساه استحضار العبرة ، فحينئذ لا يتسع المجال إلا للصبر.

فعلى المربين أن يرفقوا بقوّتى الحفظ والذكر ، ولا يركنوا إلى مجرد الاستظهار مهملين استذكار الإرادى الذى هو دعامة الأخلاق ، أليست المعانى كنزا يدخر لينفق منه عند مسيس الحاجة؟ ولولا الإنفاق لكان المدخر من سقط المتاع.

اختلاف نزعات الكُتّاب والخطباء:

تختلف نزعات الكُتّاب والخطباء باختلاف قدرتهم على عرض الأفكار وأشباهها ونظائرها ، ترى الشاعر إذا عزم على الإنشاء تتوارد على ذهنه المعانى والأفكار والعبارات ، فيحاول أن يؤلف بين أشتات الشوارد، ويسوق إلى الناس قولا يستهوى العقول وينقلها إلى الأغراض التى يريدها ، فأحيانا يريد تصغير نفس

البخيل فى نظره وتنفيره من البخل. وقد قال حاتم الطائى فى هذا المعنى وأجاد :

يرى البخيل سبيل المال واحدة إن الجواد يرى فى ماله سبلا

ويرى أحيانا أن ينزع عن الجبان رداء الرعب والفزع ، وينفخ فيه روح الشجاعة والإقدام ، كما قال جرير:

قل للجبان إذا تأخر سرجه هل أنت من شرك المنية ناج ؟

ويريد أحيانا أن يزيل ما يخالج القلب من الامتعاض ، كما قال صاحب المثل السائر :

جرحوا قلبى وحبهم يذهب بألم الجراحة ، وطرفوا عينى وهم يزيدون فى نظرها ملاحة .

ويريد أحيانا أن يعتذر عن مزاولة أمر غير مباح على حد قول ابن الرومى:

رأيت خضاب المرء بعد مشيبه حدادا على شرخ الشبيبة يلبس

ويريد أحيانا أن يرقى إلى ذروة الرجاء فيصوغ الفذ على النهج الذى صاغه أبو زيد الأشبونى فى إدريس العالى ملك الأندلس حيث قال :

انظرونا نقتبس من نوركم إنه من نور رب العالمين

وقد بلغ تأثر الملك من روعة هذا الشعر، وكان محتجبا على عادته. إن أمر الحاجب أن يرفع عنه الحجاب ليقابل بوجهه وجه الشاعر وأمر له بإحسان ليجمع بين أمنيتيه .

يقظة الغريزة الجنسية:

يبدأ الصبى بعد فترة طويلة أو قصيرة فى الانتباه إلى ذلك الذى يحدث بين كل حين وآخر والذى يبدأ فى أول الأمر كحالة منعكسة غير إرادية . ولا ريب فى أن النمو العقلى السريع فى الإنسان من الأسباب التى تلفت نظره إلى وجود الفوارق بين الجنسين حتى قبل أن تستكمل العاطفة الجنسية نموها. بل أن المظاهر الأولى

لهذه العاطفة هى التى توجه نظر الصبى إلى تلك الفوارق ؛ لأنه قبل ذلك العهد لا يدرى وجودها ولا يلتفت إليها ولا يهتم بمعرفتها . ومن عادة الإنسان أنه يمر على الأمر الذى لا يهمه فلا يلتفت إليه. ولذلك فنحن نرى أن الأفراد الذين تنضج العاطفة الجنسية عندهم متأخرة أو ضعيفة قلما يهتمون بمعرفة هذه الأمور بل وقد يجهلونها جهلا فاضحا بعكس الأفراد الذين تظهر عندهم العاطفة الجنسية مبكرة أو قوية.

ثم لا يلبث الفعل التناسلى بين الحيوان أن يوقظ اهتماما غريبا فى نفوس الصبيان ذوى الميول الجنسية الحادة أو المبكرة. وهم يدركون بسرعة عجيبة الغرض من هذا الفعل ويحاولون أن يجدوا له نظيرا فى أجسامهم . ومن هنا يبدأ تأثرهم من رؤية المرأة وخصوصا من رؤية ما لم يعتادوا رؤيته فيها مثل بعض أجزاء جسدها التى تغطيها بالثياب أو مثل بعض ملابسها وأدوات زينتها أو بعض روائحها الخاصة أو من رؤية نساء لم يعاشروهن كثيرا ، وهذا هو السبب أيضا فى أن الإخوة والأخوات لا يشعرون بأى إحساس جنسى متبادل . ولا تبعث رؤية الفتاة العارية فى صبيان الشعوب المتوحشة أى رغبة جنسية عندهم لأنهم ألفوا أن يروا الفتيات على هذه الصورة بينما يوقظ منظر الفتاة العارية رغبة جنسية عنيفة فى نفوس الذين ألفوا رؤية المرأة تحجب جسمها بالملابس ، وكذلك فإن رؤية وجه المرأة عاريا **يبعث الشهوة** الجنسية إلى نفس الشرقى ورؤية الساق العارية فى نفس الأوروبى ، وذلك لأن النساء اعتدن أن يحجبن وجوههن فى الشرق وسيقانهن فى الغرب ، أما إذا كانت العاطفة الجنسية فى الرجل عنيفة أو متعطشة ، فإن رؤية المرأة عموما تهيجها ما لم تكن من تقدم السن أو الدمامة بحيث ينفر الرجل منها.

ومن المميزات الهامة للعاطفة الجنسية الطبيعية فى الرجل أنها تتأثر تأثرا قويا من رؤية المرأة الصحيحة القوية الجسم ، فالقوام الصحيح المعتدل والرائحة الطبيعية والصوت الرقيق والجلد الناعم كلها من المرغبات القوية التى تسر الرجل وتهيج

عاطفته أما كل امرأة غير صحيحة أو ذابلة وكل رائحة مرضية ، فمن شأنها أن تؤثر على الرجل تأثيرا منفرا ، ومن شأنها أن تعطل الرغبة الجنسية أو تهبط بها.

وكل ما يتعلق بالأعضاء التناسلية يعمل على هياج العاطفة الجنسية وخصوصا إذا كانت مستورة بالملابس من قبل وكذلك هو الحال أيضا فى الثديين.

ولا تكون الإحساسات الجنسية فى أول الأمر ظاهرة ومتميزة ، بل إن الصبى يشعر بدافع مبهم غامض يدفعه نحو الجنس اللطيف ، ويصوره له تصويرا مرغبا جذابا ، وبذلك قد يرى الصبى نفسه فجأة عاشقا لصورة امرأة ذات صدر ناهد وعيون فاتنة ، ويصبح مرأى هذه الصورة أو حتى مجرد مرورها فى خياله باعث رغبة جنسية فى نفسه. غير أن هذه الرغبة لا تتركز على الفعل التناسلى كما هو الحال مع الرجل البالغ المجرب فى هذه الأمور ، ولكنها تكون عامة ومبهمة وإن كانت لا تخلو من العامل الجنسى.

ويتكرر شعور الصبى بهذه الدوافع مدة طويلة دون أن يستطيع إرواءها فيلجأ عقله الباطن إلى الأحلام ، ولكنها لا تلبث أن تنحصر فى أعضائه التناسلية ، وخصوصا فى حشفة القضيب. وتبدأ الأعضاء التناسلية فى المرأة – كما يعرفها أو كما يتخيلها – فى إثارة الهياج إلى نفسه بعد أن كانت لا تخطر إلى باله من قبل.

وعند الشعوب المتوحشة – وكذا فى الحيوان – يبدأ الذكر مغامراته الغرامية منذ ذلك الحين ، وسرعان ما ينال غرضه لأن الرجل فى الحالة الطبيعية يتزوج بمجرد وصوله إلى سن المراهقة و البلوغ.